حوليات الجامعة التونسية – عدد 2009/54 ص ص 21 – 28

بين اللّسان والإنسان (*)

بقلم : **أندري رومان**
تعريب : **عبد القادر المهيري**
كلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات
جامعة منّوبة

إن المقترح هنا هو رسم إجمالي مثالي لما بين اللسان ووضع الإنسان من علاقة بعيدا عن طبيعة الكون الفيزيائية، وهي طبيعة ملموسة لا يحيط بها سياج ومسرح ردود فعل وقوى.

---

*) م.م : لقد تساءل الإنسان عن أصل الألسن منذ أن بدأ ينظر فيها ويسعى إلى وصفها، وفحص أبنيتها، وضبط قواعد استعمالها، وهو في بحثه عن الأصل يحاول أن يتعرّف إن جاز التعبير على الغيب، أي على ما لا مجال لإقامة الدليل القاطع عليه، فلا يمكن له إلا وضع فرضيات مختلفة يمكن تلخيصها في ثلاث : التوقيف أو المحاكاة أو الاصطلاح الواعي المنتظم. لقد صاغ هذه الفرضيات على ما يبدو فلاسفة اليونان لا اللغويون أو النحاة، ولم يتعرّض نحاة العربيّة بدورهم لقضية الأصل فالمتكلمون هم اللذين تناولوها. وابن جني هو النحوي الوحيد الذي تساءل عن أصل اللغة متأثرا بدون شك بما أخذه عن مشائخه من المتكلمين وخاصة أصحاب الاعتزال.
ظل الإنسان يتساءل عن أصل الألسنة إلى عهد غير بعيد، ورغم ما شهدته اللّسانيات التاريخيّة من تطور في القرن التاسع عشر فإنها لم تتمكن إلا من التدليل على تولد الألسن الحيّة من ألسن أخرى مهجورة تشهد عليها نصوص موثقة، ولم يفض سعيها إلى الحفر في ماضي الألسن إلا إلى تصوّر لسان مشترك لكلّ أسرة من ألسنة العالم المعروفة اعتمادا على ما بين أفراد كلّ مجموعة من تشابه في بعض مكوناتها الأساسيّة. لكن ماذا وراء هذه الألسنة المشتركة على افتراض أنها وجدت حقا؟ أفلم يسبقها لسان آخر بل ألسنة أخرى ؟ وإن افترضنا أن واحدا منها هو أصل جميعها فمن أنشأه؟ هل هو من وحي الخالق أم من وضع الإنسان؟
يعتبر اللّساني اليوم أن الألسن مؤسسات بشرية وأنه يمكن للمرء أن يتساءل عن كيفية اهتداء الإنسان إليها ووضعها، وذلك بفضل ما يجده في بعضها من خصائص تبدو شاهدا على طور قديم من تاريخها.
هذا ما يسعى إليه أندري رمان، فقد بدا له أن بعض نصوص العربيّة القرآنيّة والشّعريّة القديمة تحمل بقايا طور قديم من تاريخ هذا اللّسان تدل دلالة محتملة كبيرة الاحتمال على أنّه قام على أسس ثنائيّة هي نتيجة اكتساب الإنسان القدرة على التوليف بين عنصرين في شؤون حياته. ويعتبر رمان أن هذه الهيكلة الثنائيّة الظاهرة في مستويات مختلفة من تركيبية هذا اللّسان يمكن اعتبارها شاهدا على كيفيّة نشأة كلّ الألسن. هذا ما تناوله في العديد من مقالاته وفي مقدمة تصنيفه الشامل "نظامية العربيّة"، وقد لخصه في خطاب ألقاه عندما قبل في آكادمية مدينة ليون رأينا من المفيد ترجمته إلى العربيّة.

إنه قبل كل شيء رسم إجمالي لتفهم اللسان في حد ذاته، أعني تفهم أنظمة بسيطة محددة وتفهم العلاقات المجردة التي تهيكلها والنظر في تشاكل ممكن بين اللسان والإنسان.

ليس كلام الإنسان وليد الصدفة، فهو يجتنب الصدفة، وهو مواعيد متعاقبة متواضع عليها من قبل المتخاطبين.

إن الكلام القائم على التواضع لا يمكن أن يكون كلاما خاليا تماما من النظام، كلاما شبيها بالصياح.

تعبّر الصيحة عن تجربة الشعور بحاجة أو رغبة أو انفعال، وهي تعبّر عن هذه التجربة تعبيرا مطلقا، ولا تدخل في علاقة بأية صيحة من الصيحات الأخرى المعبّرة عن تجارب أخرى، فهي تجهلها كما تجهل مكوّنات التجربة التي أحدثتها وظروفها ولا تلتقط ولا تسمّي أية واحدة منها، إنها تعبّر عن تجربة ما تعبيرا مجملا، فصَيْحة الألم لا تعبر إلا عن الألم.

لذا فالتجارب المختلفة، وإن لم يختلف بعضها عن بعض إلا بمعطى واحد من معطياتها، تشير إليها صيحات ليس بينها شبه يذكر. وعلى كلّ، فإنه لا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار شبه ممكن من هذا القبيل يحاكي في الظاهر التجارب التي تدل عليها، إذ من البديهي أن ذلك لا يكون ممكنا إلا إذا كانت الصيحات مركّبة. هكذا، فاللسان المتكون من صيحات يبدو خليطا من ملفوظات خاما تودع في الذاكرة وحدها بصفة فوضوية.

ومن ناحية أخرى، فكلّ صيحة لا توجد إلا في اللحظة التي تصدر فيها، وذلك خارج زمن التاريخ. إن صيحة الألم لا تشير إلا إلى الألم الراهن، فهي لا تشير إلى ألم مضى ولا إلى الم آت. إن صيحة الألم لا تندرج في الزمن ولا تتحقق لحظة من لحظات التاريخ، وليس للذاكرة التي تحتفظ بها من السعة ما يمكّنها من احتواء التاريخ، فليست هي ذاكرة تغامر بمواجهة الأسئلة.

من البديهي أن لسان الإنسان ليس لسان صيحات، حتى ولو تضمّن صيحات التعجب وبعض المحاكيات. فهذه، إن صح التعبير، صيحات متحكّم فيها مثل 'آي' و'آه'.

إن الفرضية التي بمقتضاها يبدو لسان الإنسان مركّبا تفرض نفسها. واعتبارا لهذا، فمن أين نشرع في دراسة تركيبه ؟ هي تبدأ بمقتضي نظرة قبلية في أجزائه التي تبدو مركّبة، من كلماته التي تتصرف وتعرب ويطابق بعضها بعضا. لكنّ دراستها لم توفّر إلى الآن تخطيطا عاما. وبعبارة أخرى، فالأنحاء التي وضعت علي أساس التصريف والإعراب والمطابقات والتحاليل المنطقية ...هي فعلا مصنّفات قواعد، ولكنّها تضمّ أيضا معطيات خارجة عن كل قاعدة.

لقد أخفق النحاة واللسانيون خاصة في بحثهم عن تركيب الجملة التي هي مع ذلك أهم مكوّن من مكوّنات التركيبية، وما يقوم مقام هذا هو أن كلّ متكلّم لا يلتزم في استعماله اللسان بالتركيبية، بقدر ما يلتزم باستعمال ما سجّله في ذاكرته.

لم يتسنّ إثبات وجود تركيبية تامّة الهيكلة، أي وجود منظومة تواصل خصوصيّة، تم التعرف عليها والاعتراف بها.

إن الأسماء الفرنسية قلّما نشأت فرنسية، فمن الاسم اللاتيني المنقول من اليونانية *Akadêmia* صاغت الفرنسية « académie » واشتقت بواسطة أصناف من الزيادات « académicien » و« académisable » و« académiser » و« académisme » و« académiste ».

إن الزيادات عناصر تنضاف إلى جذور المفردات لتجعل منها أشكالا ذات معنى خاص. وتمثل الزيادات صدى للبدائيات التي لا ينفك الإنسان يعمل على ابتكارها في آليات الكون. لكنّ الألسن تضع، وهي تكوّن مفرداتها على أساس الجذور، مجموعتين : إحداهما للجذور والأخرى للزوائد. و العلاقات بين الجذور والزوائد في الفرنسية، كما هو الشأن في كل الألسن التي هي كالفرنسية، ألسن جذور متكونة من مقاطع ليست علاقات منتظمة، ويصطفي كل جذر ذي مقاطع بعض الزيادات دون غيرها من أجل الأصوات التي هي مادّتها ومن أجل تاريخه الخاص، وتضع المصنّفات النحويّة والمعاجم جردا للظواهر المنتظمة المختلفة الاتّساع، وتتمّم ذلك بما لا انتظام له.

انطلاقا من الاسم الإنكليزي *railway* الذي لم يتسن للفرنسية أخذه كما هو، وضع هذا اللسان « chemin de fer »، واضطرّ بعد ذلك أن يشتق « cheminot » فقط من رأس الاسم المركب « chemin de fer ».

تمثل الأسماء المركبة المتزايد عددها باستمرار في مفردات الألسن انقطاعا عن التسمية بواسطة الزوائد التي تنزع وحدها نحو الانتظام. ومن البديهيّ أن كل اسم مركب يمثل وصفا جزئيا لذات من ذوات الكون. إن الكلمة « règle à calcul » التي تسمّي في الفرنسية آلة حاسبة متكونة من مسطرتين تتحرك إحداهما على الأخرى تقابلها في الإنكليزية *slide rule* أي « مسطرة متحركة » وهذا ما لا يقوله الاسم الفرنسي .خلافا لذلك فإن « pied à coulisse » الفرنسية تسميها الانكليزية باسم « لا يتحرك ».

لا يكون وضع الأسماء المركّبة إلا غير منتظم، والحال أن هذه الأسماء ضرورية تستجيب لحاجيات التسمية التي لا يمكن أن تسدّدها أية منظومة من منظومات التسمية، لأنّها خاضعة لحدود ضيّقة كالتي ترسمها لها مثلا زوائدها.

إن فرضيّة وجود تخطيط عامّ كان يمكن أن يكون تخطيطا عاما للسان في بداياته لم يرد ذكره عند النحاة ولا عند اللسانيين، ومن المفارقات أن ذلك راجع

بلا شك إلى أنه لا يليق أن يعتمد اللسان للبحث عن تركيبه، والواقع أن الأجوبة المستفادة من هذا التمشي جزئية غير ثابتة.

هكذا بحث النحاة ومن بعدهم اللسانيون عن مبدأ تركيب الألسن لا في الألسن وإنما في الفلسفة، حسب Antoine Arnauld وClaude Lancelot في القرن السابع عشر، وأثناء القرن العشرين في حوافز الإنسان النفسانية حسب Gustave Guillaume، وحسب Noam Chomsky بعد ذلك بقليل في سراب تركيب مثالي تمثّل صداه الألسن التي يتكلمها الناس، أي تلك الألسن غير المنتظمة، وفي المنطق حسب Michel Le Guern.

إن التفكير الوحيد الذي تساءل أصحابه عن أصل الألسن من هذه الأصناف الأربعة هو تفكير الفلاسفة. هكذا فحسب الفيلسوف النحوي Nicolas Beauzée المعاصر لـ Antoine Arnauld وClaude Lancelot :

« الإله ذاته هو الذي لم يكتف بمنح أعضاء الجنس البشري الأولين ملكة الكلام الثمينة، فسرعان ما انتقل بهذه الملكة إلى الممارسة الفعلية بأن أوحى لهم الرغبة في تصور الكلمات وصيغ التراكيب اللازمة لحاجيات المجتمع الناشئ وفن تحقيق ذلك ».

وذهب علم من أكبر أعلام الحضارة الإسلامية ابن حزم الأندلسي المتوفى في بداية القرن الحادي عشر إلى القول بوجود سبب بشري لفائدة الأصل الإلهي للألسن، قال :

« فان الاصطلاح علي وضع لغة لا يكون ضرورة إلا بكلام متقدم بين المصطلحين علي وضعها أو بإشارات قد اتفقوا على فهمها،وذلك الاتفاق على فهم تلك الإشارات لا يكون إلا بكلام ضرورة، ومعرفة حدود الأشياء وطبائعها التي عبر عنها بألفاظ اللغات لا يكون إلا بكلام وتفهيم لا بد من ذلك »

ويختم ابن حزم بقوله :

« لا بد من لغة واحدة وقف الله تعالي عليها »

وعزا فلاسفة آخرون تكوّن الألسن لا إلى الإله وإنما إلى الإنسان. فالمحاكيات، أي بعض الصيحات المستعملة من قبل الناس، مثّلت أولى مواد الألسن الإنسانية، لا شك في ذلك. لكنّـهم يفترضون أنه قد تمّ بعد ذلك التوليف بين هذه المحاكيات. وهذا لا يمكن، فتوليف المحاكيات من قبيل الوهم.

ما هو المسلك الآخر الذي يتوخّـى للرجوع إلي مبدإ الألسن ؟ يبدو أن آخر ما بقي مفتوحا من المسالك الأخرى هو النظر في مجموع التركيبات الممكنة بمقتضى نظرة ما قبلية، ومن شأن التركيب الخاصّ بالألسن أن يكون بين هذه التركيبات الممكنة التي يتعرف عليها مجردة.

لقد لاحظنا أن الصيحة غير مركّبة، فهي لا تعرف إلا نفسها، وكأنها منطوية علي ذاتها، وتتجلّى عنصرا وحيدا غير شفاف ذا صبغة مطلقة.

الواقع أنّ كلّ تركيب يبدأ بإقامة علاقة بين عنصرينز ويجب، ليكون التركيب المستهلّ بهذه الطريقة قارّا، أن يكون هذا التوليف التأسيسي الأول هو ذاته قارّا. وبعبارة أخرى، يجب أن تكون العلاقة بالعنصرين المكوّنين لهذا التوليف ثنائية الاتّجاه على غرار علاقة الزوج بزوجته. فهي عبارة عن علاقة زوجية فلا زوج بلا زوجة ولا زوجة بلا زوج.

ليس لسائر العناصر الراجعة إلى هذين العنصرين - النواة - نفس الضرورة. فالزوج والزوجة يمكن أن تكون لهما علاقة مشاركة مع أشخاص آخرين، كما يمكن أن تكون لهما علاقة بأشخاص في خدمتهم. فعلاقة أحد الزوجين بهؤلاء الأشخاص هي مجرد علاقة أحادية الاتجاه تتمثل في المشاركة أو التبعية.

إنّ ما يماثل هاتين العلاقتين في الألسن هما العطف والتبعية. وهذه العلاقات الثلاث الثنائية الاتجاه والأحادية الاتجاه هي علاقات تتقابل تقابلا ثنائيا.

من الممكن أن توجد تركيبات وتوليفات أخرى غير ثنائية، لكنها تربط بنفس العلاقة أكثر من عنصرين.

قد بيّن الذين اخترعوا هذه التوليفات المعقّدة الثلاثية والرباعية والمتعدّدة، بعد وضع الألسن بمدة طويلة جدا أنه يمكن إرجاع كل واحد منها إلى توليف ثنائي.

إن التوليف الثنائي الذي هو أول التوليفات الممكنة قوي الفعالية، فهو قوي إلى درجة أنه المعتمد في الإعلامية، هو بالغ القوة وبسيط أيضا.

وهو من ثم قابل للحساب في الحين من قبل الإنسان، إنه في الواقع متلبّس بالإنسان.

إنّ كلّ ما يختاره الإنسان في حياته هو موضوعيا فرز، وكلّ فرز يفضي إلى مجموعتين المجموعة المختارة والمجموعة الباقية المهملة. ولا ينفك الإنسان يَـختار كما لا ينفك يُـختار.

الواقع أن هذه الهيكلة المألوفة، هذه الهيكلة الثنائية البسيطة توجد في النظام العامّ للألسن، وهي تنمّ عن تخطيط الجمل.

إن العلاقة في الجملة « يا نخلة » بين « يا » و« نخلة » هي علاقة ثنائية الاتجاه علي غرار العلاقة الزوجية المذكورة، لأنه لا يمكن لكل من «يا» و«نخلة» أن يوجد بدون وجود الآخر، إلا إذا تغير، فيكون كلاهما لا وحده وإنما مع شريك آخر.

وليس المفعول فيه « من ذات عِرْقٍ » في « يا نخلة من ذات عِرْقٍ » ضروريا للجملة « يا نخلة » فقد كانت موجودة قبل دخوله فيها، ويمكن لهذا المفعول أن يعوّض بأي مفعول آخر قد يختاره المتكلّم بين كل المفاعيل.

إنّ ما رسمناه من تخطيط للجملة رسما مجردا مشترك فعليا بين كل الألسن، فكلّ الجمل المهيكلة مركّبة حسب هذا التخطيط الثنائي، وقولنا كلّ « الجمل » معناه بعبارة أخرى التعابير التي يتخاطب الناس بواسطتها. هكذا تشترك كلّ الألسن في منظومة التواصل نفسها، إنّها منظومة كونية.

ما هو شأن نظام التسمية المحتمل ؟

لقد تولّد اللسان الفرنسي من ألسنة أخرى. ومن الغريب أن اللسان العربي الكلاسيكي يبدو متولّدا من نفسه، فليس له في ماضيه أيّ لسان سام آخر، ولا حضور للألسن الأجنبية فيه، إلا عن طريق معرّبات لم تؤثر إلى الأمس القريب في تخطيطه. إنّ هذا اللسان قد احتفظ بتخطيط ما زال قابلا للقراءة، لأنّه دخل في التاريخ حيًّا أثناء القرن السادس الميلادي، باعتباره لسانا بالغ القِدَم، وأنه سرعان ما استقر بنصّ القرآن منذ القرن السابع.

ليس للمنظومة المقطعيّة في العربية إلا مقطعان هما نفس المقطعين الموجودين في حرف جواب وتصديق « نعم » :

[صامت صائت] [صامت صائت صامت]

إنّ هذه المنظومة تحدّد في اشتغال اللسان التفريق والفصل بين صوامته وصوائته فكلاهما في واد خاصّ به.

إن هذا الفصل وهذا التفريق بين صوامت اللسان العربي وصوائته مكّنا من إسناد دورين مختلفين للمجموعتين إسنادا منتظما. وذلك لأنّ كليهما يستعمل استعمالا مستقلا عن الآخر.

هكذا أقامت العربية منظومة التسمية فيها على أنواع من تأليفات الصوامت.،وهذه التأليفات هي التي كوّنت الجذور الواضحة القارّة لوحدات تسمية العربية أي أسماؤها وأفعالها.

أما الصوائت التي هي عناصر الفرع المكمّل لفرع الصوامت، فقد استعملت القصيرة منها علامات للإعراب، ولا دخل للصوامت في ذلك.

إن صوائت الحالات الإعرابية هذه هي القطع الأساسية في منظومة تواصل العربية الكلاسيكية.

هذا الرسم الثنائي الذي وضعت للقارئ خطوطه الكبرى هو الذي وسّعه الإنسان شديد التوسيع بمقابلات ثنائية متعاقبة تبعا للطريقة الثنائية المألوفة عنده.

وهذا التخطيط الذي ما زال ملموسا في اللسان العربي هو تخطيط اللغات السامية. وهو يكشف، عن طريق المقابلة الثنائية، إمكانية تخطيطين ثنائيين آخرين، أحدهما قائم على جذور صوائت، وهو تخطيط الألسن ذات النبرة كاللسان الصيني، والآخر على جذور مقطعية، هو تخطيط اللغات الهندية الأوروبية كالسنسكريتية والفرنسية.

إن هذه الملاحظات تسمح بأن نزعم زعما محتملا أشد الاحتمال النتائج التالية :

إن طريقة العمل الوحيدة المعتمدة لدى الإنسان صادرة عن قدرته علي التوليفية الثنائية.

إن قدرته على التوليفية الثنائية كانت هي لسانه الأوّل المشترك، لسانه الأوّل الذي بواسطته تمكن من التواضع على إقامة مجتمعاته ولهجاته، إنه لسان ملحمته الطبيعي الوحيد.

هكذا فاللسان متلبس بالإنسان .يصدر في الحين عن قدرته علي التوليفية الثنائية.

الإنسان مدفوع بقدرته علي التوليفية التي هي أساسية فيه ومصدر تطلّعه.

فالتعرف على س يدفعه إلى التعرف على ش الذي يقتضي وجوده وجود س، وهكذا يكتشف ش. إن طاقته التوليفية هي مصدر اكتشافاته ومصدر شعوره بالجمال. فما لا تبرزه نظامية ألسنته من فروق بين الأبنية يضطرّه إلى أن يلتمس في ذاته وخارجا عن هذه الألسن السبب الذاتي لاختياره، وتفضيله صياغة دون غيرها. فجملة المعرّي الشهيرة في مرثيته « تعب كلها الحياة » والجملة الموازية لها "الحياة كلها تعب" هما جملة واحدة من منظور التركيبية، لا من منظور الأسلوب، فترتيب الكلمات في الجملة الأولى ترتيب جمالي، ترتيب ذو صبغة بلاغية، ذلك أن العالم يقدّم الأشياء التي توجد بذاتها « الحياة »، بينما لا يمكن للمسند « تعب » أن يوجد إلا في الشيء.

إن الشعور بالزمن وجد مع الإنسان. فقد أصبح سلف الإنسان، وقد تمّ له هذا الشعور بالزمن كائنا ذا ذاكرة ومشاريع.

لقد تولّدت قدرة الإنسان علي التوليفية الثنائية عن شعوره بالزمن. وقد دفع الإنسان بهذا الشعور إلى مقابلة حضور الزمن بفكرة غياب الزمن. وهذه المقابلة تخترق منظومات التسمية في ألسن العالم جميعها اختراقا شاملا، وقد وضعت وحدات التسمية كلها :

إما باعتبارها وحدات تصوّرها الإنسان وحدات غريبة عن الزمن ومثالها «حيوان».

وإما وحدات تصوّرها الإنسان وحدات حادثة في الزمن، أو في ذاتها ومثالها « ناطق ».

إن هذه المقابلة محملة بفكرة كائنات خارج الزمن ذهب الإنسان إلى أنها آلهة معبودات ما ولكنها ليست وحيدة.

وعلى عكس هذه الكائنات الخارجة عن الزمن والمتعدّدة تحمل مقابلة قصوى على الاعتراف بكائن خارج الزمن وحيد هو « الواحد ».

لكن ما هي طبيعة هذه « الذات الموحّدة » التي تتّجه إليها التوليفية الإنسانية علي غرار إبرة البوصلة.

هل هي نتيجة لا معنى لها أي النهاية الآلية للعبة التوليفيّة ؟

هل هو الواحد مبدأ الفوضى ؟

هل هو الأس الذي يدفع الإنسان إلى ضروب تجاوز الذات، ومحرك شعوره بالخير؟

هل هو « الواحد » المطلق الخالق الذي لا يشبهه شيء.

إن ما نعرفه من أقدم الأجوبة حول بداية الإنسان والألسن أجوبة الأساطير تلك القصص المولدة للثقافات أو أجوبة فن الأنساب أو أجوبة الوحي.

لكن الوحي « ليس له من دليل إلا ذاته »

إن انتصاب الإنسان واقفا ونظره المتجه إلى السماء قد تقبلهما بعضهم كعلامات دالة علي الإله.

قد يكون اكتشاف الإله بتتبع المسلك الثنائي حقيقة مسجلة في طبيعة الإنسان توازي الحقيقة التي جاء بها الوحي.

في بداية الإنسان واللسان توجد القدرة التوليفية الثنائية التي تجعل من سلف الإنسان إنسانا ناطقا، إنسانا صانعا.

لكن الإنسان عندما يصل إلى أقصى حد من توليفيته، إلى منتهى غايتها، فإنّه يشعر بأنّها لا تعود تساعده بأنها تفلته. ما العمل إذاك ؟

يمكن له أن يختار حسب الصدفة الإيمان أو عدم الإيمان بكائن «واحد» لا ينحصر في شيء، كائن ممكن لكن غير متأكد الوجود.

يمكن له إخلاصا لنفسه أن يحتسب ما لاختياره من حظوظ فيراهن على طبيعة الواحد.

أندري رومان

تعريب : **عبد القادر المهيري**